

الشيخ كاظم الصحاف شاعراً .. 1313 هـ - 1399 هـ

مابالُ ثاركَ عن مثاركَ نازحُ

ولكَم شجاهُ من الصابة صادحُ

وإلامَ لم تنهض به متطلِّبًا

والسيف في كف انتصارك لائحُ

أنت الرجا والمرتجى والغيثُ إنَّ

عزَّ النصير وقَلَّ فيه الناصحُ

ضاق الخناق أبا الفتوح ولم نجد

إلاَّك فاتحها فانت الفاتحُ

وكذلك جده الشيخ محمد بن الشيخ حسين الصحاف رحمه الله كان شاعرا مجيدا أيضا و من شعره في تخميس إحدى القصائد الشهيرة في أهل البيت عليهم السلام :

من نكبات الدهر لا أجزعُ

وإنني في العيش لا أطمعُ

وقائلٍ لي صاحٍ ما تسمعُ

(لأمَّ عمرو باللو مربعُ

طامسةُ أعلامهُ بلقعُ)

دارُ حوتٍ غيداءٍ حلّيةٌ

كانت بحسن الوصف معنيةٌ

فصيَّرتها الريحُ معفيةٌ

(تروح عنها الطير وحشيةٌ

والأسودُ مـن خيفتها تفزعُ)

قد كنتُ في الليل لها أغلسُ

وفي حشا قلبي لها مجلسُ

مربعها تشجى به الأنفسُ

(برسم دارٍ ما بها مؤنسُ

إلا صلالُ في الثرى وقَّعُ)

تشوَّق القلبُ لمحبوبةٍ

لأنه غاية مطلوبهـ

لله دهر كنت أخلو بهـ

(ذكرتُ مَنْ قد كنتُ أَلهو به

فبتُ والقلب شَجَّ مولعُ)

والمدهش أيضا أن الشيخ كاظم الصحاف رحمه الله إنَّسَلَ وكالشعرة من العجين من براثن الغزل الماديّ الذي قلَّما يستطيع شاعر مهما كانت درجة ورعه و تدينه الإنفلاتَ منها , فنادرا ما تجد أبيات نسيب أو تشبيب للشيخ كاظم , و حتى وإنْ وجدتَ فستكتشف أنها مجرد مقدمة لقصيدة مدح أو رثاء لأحد أئمة أهل البيت ا لطاهرين عليهم السلام أو لأحد رموز الأمة , يجاري بذلك أسلافه من الشعراء الذين اعتادوا افتتاح قصائدهم بأبياتٍ من الغزل لجذب انتباه السامع وليس قصدا للغزل و التشبيب . وذلك لعمرى دليل واضح وإشارة جلية إلى امتلاء قلبه واكتناز مشاعره بمودتهم وبالولاء لهم عليهم السلام وقد عبّر هو عن ذلك بقوله :

إنَّ قلبي اهتدى بآل محمد

وولائي لآلهٍ قد تأكَّدْ

يا كتابي فقل لكل أديبٍ

لوذعيَّ له الثقافة تشهدْ

سَعُدَ الناس بالملوك وإنَّ

وكانَّ الشيخ كاظم رحمه الله أراد أن يدخل فيما دخل فيه عميد شعراء الولاء الهَجَرِيَّ (سفيان بن مصعب العبدي) وشاعر بني عبد القيس الخالد الذي استأثر بشرفٍ لم يحض به شاعرٌ من قبله ولا من بعده عندما قال الإمام الصادق عليه السلام في حقه (علّموا أولادكم شعرَ العبدي فإنه على دين الله) .

وسأورد من الشواهد ما يثبت أن الشيخ كاظم رحمه الله لم يكن يقصد الغزل إلا لجذب انتباه المتلقي ولفتح نوافذ روح السامع لنور مناقب وطيب سجايا مَن أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، يقول في مقدمة قصيدة في مدح النبي الأعظم محمد صلى الله عليه وآله :

أهيّ الشمس أشرقت بضائها

أم سُلَيْمى بحسناها و ضياها

لست أنسى لها مراتب أنسى

قد هوتني بها كما أهواها

ليتها قد وفّت ولو بعض يومٍ

علّ نفسي تطيب مما اعتراها

وزماني بها يعود بوصلٍ

وبسعدٍ ولذّةٍ في هواها

مثلما عاد لي الزمان سعيداً

يوم ميلاد سيّد الرّسل طه

ويقول في مطلع قصيدة أخرى في النبي الأكرم أيضا عليه الصلاة والسلام :

أشعاع الشمس أمّ الفرقد°

طلّعا لي أمّ وجه الأغيد° ؟

فكأنّ الشمس بغرّتهـ

والورد بخدّيه تورّد

أصفيتُ له حبي عشقاً

ووفيتُ له فيما يُعهد°

فأحلّ العقدَ و خان العهدَ

وفلّ الوعدَ و عني مدّ°

إلى ان يقول:

فكأن النور بطلعتهِـ

قد جاء من ا لهادي الأسعد

وختام ا لرسل وسيدها

وسراج هدى الرب الأوجد°

ويقول في مطلع قصيدة في مدح أمير المؤمنين عليه السلام :

أسناءُ الفجر لنا كبدّر°

بجبينك أم بدرٌ أزهر° ؟

وثنايا الثغر تلوح لنا

أم ذاك ا لدرّ أم الجوهر

ياريم الحيّؑ وأختَ البدر

ونور الصبح إذا أسفر

إن كان بدا مني ذنبٌ

فبمدح أبي حسنٍ يُغفرُ

فيه نفسي أمِندَت و نَجَتُ

في الحشر من الفرع الأكبر

وحتى عندما يشكو الشيخ كاظم الزمان و جور بعض حساده عليه فلا يعوذ ولا يلوذ إلا بحبل الله و سفينة النجاة عليهم الصلاة والسلام , يقول رحمه الله:

أنفسيَ مَن جور الزمان غدت حرّى

أم الدهر وافاني ببطشته الكبرى؟

أعاني العَدَا طول الزمان وإنني

بفضل إله العرش لم أعرف الشرَّ

وأسمع أقوالا تقطّع مهجتي

كأنني لا أدري وكنت بها أدري

و أجبر فوق الضر نفسي تكلّفا

وأَمْسِكْ في عيني سيول مدامعي

وأَكْتَم والأحشاء من حَرِّهِ حرِّي

فطورا بوادي الحزن ترقل ناقتي

وطورا بسوط الحمد أزجرها شكرا

وآليت لا أرمي زمام عقالها

بنارٍ ولا أدعو سوى الآية الكبرى

فذاك عليٌّ خير من وطئ الثرى

وحجة دين □ في الضر والسرا

فلا سيف إلا ذو الفقار و لا فتى

كمثل عليٍّ حيثما مال أو كرا

فمنذا يضاهيه بفضلٍ و رفعةٍ

وقد كلّت الأقلام عن عدها حصرا

وحارت به الأوهام حتى تقاصرت°

وتاهت ولم تدرك مقاما ولا قدرا

ويمكن للباحث و الدارس اعتبار هذه القصيدة الرصينة دليلا على ما كان يتوفر عليه الشيخ كاظم رحمه الله من موهبة شعرية وفطنة و حس أدبي ثري .

وعاملٌ آخر من العوامل التي تشكلت منها (الكاريزما) المذهلة للشيخ كاظم الصحاف رحمه الله وهو جرأته الكبيرة ضد كل ما يتعارض مع الإخلاص في الوفاء لمبادئ أهل البيت عليهم السلام وكل ما ينافي ما دعوا إليه من معرفة و تمجيد وطاعة الله سبحانه و تعالى , ومن ذلك رده الشهير على قصيدة (الطلاسم) للشاعر إيليا أبو ماضي , فقد تصدى الشيخ كاظم لكل ما أطلقه أبو ماضي في تلك القصيدة من شكوك وحيرة , يقول الشيخ كاظم في مواضع متفرقة من رده :

بوجود الكون والأنوار فيه تتللا

أثبت العقلُ إلهً أزليا قد تعالى

وقديما أحديا عز قدرا و جللا

وقديرا بيديه الخير يجري

كنت أدري ..

يا مُريبا سأل البحر وقد زاد ارتياها

عن دليل العقل والنقل فخذ مني الجوابا

لم تكن أنت من البحر ولا الراوي أصابا

أنت من قدرة ربي لستَ منه

كنت أدري ..

إنَّ في الدير رجالا طلَّـقوا الدنيا اعتزالا

بعقول راجحاتٍ وعلومٍ تتللا

وحلومٍ راسياتٍ كجبالٍ لن تزالا

ماهمُ عميٌ ولكن أنت أعمى

كنت أدري ..

فإذا شمتَ تساوي الناس في هذا المكان

فمقام العدل والظلم فلا يستويان

فشقيٌّ في جحيمٍ و سعيدٌ في جنان

فستأ تيه وهذا العدل يجري

كنت أدري ..

ولنا من بعد هذا الموت بعثٌ و نشور

لم يكن في قدرة المبدع عجزٌ و قصور

وكلام الله صدقٌ وكلام الرسل نور

وسواه كان كفرا و ضلالا

كنت أدري ..

وقصورٌ قد بنيناها لمجدٍ و حياة

وبها خزلنا سنبقى و ستبقى خالدات !

فقضى الله عليها فتلاشت خاويات

لنراها كيف تفتنى وهو يبقى

كنت أدري ..

ولا شك أن علاقة الشيخ كاظم رحمه الله بكبار علماء عصره و ثقتهم به و اعتمادهم عليه كآية الله الميرزا موسى الحائري قدس سره و آية الله الشيخ حبيب بن قرين قدس سره و آية الله الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء قدس سره و آية الله الشيخ موسى بو خمسين قدس سره كانت أحد أسباب إيمان الناس بما ينطوي

عليه هذا الرجل من سجايا كريمة و مواهب شريفة ,

فقد بعثه آية الله الميرزا موسى الحائري إلى سوق الشيوخ نائبا ووكيلا عنه , كما كان وكيلا أيضا عن آية الله الشيخ حبيب بن قرين و آية الله الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء .

وعندما عاد الشيخ كاظم من العراق إلى الأحساء استضافة آية الله الشيخ موسى بوخمسين وأكرمه أيّما إكرام , وعندما سافر الشيخ كاظم إلى البحرين أحسّ بشوق عارم إلى الأحساء وأهلها , فنظم قصيدة جميلة و بعثها إلى الشيخ موسى يمدحه و يعبر عن حنينه للأحساء وأهلها بحنينه للشيخ موسى يقول فيها :

أرى أنمُلي يا زعيم الحِكمَ
عراها ارتعاشُ بضمّ القلم
وقد كان ينطق كالعندليب
فأضحى لهيبتكم كالأمم
ومن عجبٍ نظمته للحروف
وأحرفكم نسخَتَ ما نظمَ
أمولايَ هب لي فنون الكلام
وعلم البيان بنطقٍ وفم
ترفّعتَ بالعلم والمكرّمات
وسُدّتَ بها عربها والعجم
فأنت المراد و نور البلاد
وعز العباد و كنز الشيم
وفيك الحسا قد علا قدرها
وأضحت تفاخر بين الأمم

وعندما انتقل آية الله الشيخ موسى بو خمسين إلى جوار به رثاه بقصيدة عبّر فيها عن صدق محبته له و حزنه على فقده يقول فيها :

قد حُقَّ أن لا أرى في الأرض مبتسماً

أنّي .. وأثبتُ ركنٍ للهدى انهتما ؟

لفقد مَن كان للإسلام ركن حمّى

أعني به الشيخ موسى سيّد العلما

أعظم بفقد عظيمٍ جلّ فادّهُ

على الحساءِ فعمّ العُرْبَ والعجما

أصبح يا حاملا نعش الحبيب فقفا

لا ترحلنّ فقلبي ذاب وانصرما

إنه الحب الحقيقي والمشاعر الصادقة عندما تنهمر سحراً و لوعةً ووفاءً ووجداً . ولماذا لا يكون الشيخ كاظم كذلك وهو ربيب مدرسة الوجد الحسيني , وفارس منابر الشّجى الكربلائي , ولسان الباكين على سيد الشهداء عليه السلام و ما تأبينه للشيخ موسى إلا حرف واحد من أبجدية حزنه على أبي الأحرار الذي قال في رثائه في إحدى روائعه العاشورائية :

أيّ خطبٍ دكّ السما و الجبالا

وبه الأرض زلزلت° زلزالا

هو يوم الحسين أعظم يومٍ

قد أرانا بحزنه الأهوالا

فرأينا البكاء فيه سبيلا

فسلكناه طاعة وامثالا

ومن الفنون الشعرية التي برع فيها الشيخ كاظم رحمه الله فن التخميس الذي كان مضمارا يتنافس فيه الشعراء آنذاك لإبراز قدراتهم ومهاراتهم في ترويض البيان لمشيئتهم الإبداعية . وقد أبدع الشيخ كاظم وجلّ في هذا المضمار و تفوّق على الكثير من شعراء عصره , يقول مخمّسا لأبيات من قصيدة في رثاء الإمام الحسين عليه السلام مخاطبا أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام :

أبا حسنٍ يا أمتع الناس جيرةً

وأعلى الورى فضلا و فخراً و سيرةً

بناتك يا كرّار أمست أسيرةً

(أترضى وأنت الثاقب العزم غيرهً

يلاحظها حسرى القناع يزيدُ ؟)

وقال في تخميس البيتین الشهيرين للمتنبي في أمير المؤمنين عليه السلام :

□ نور المرتضى علّام الهدى
نور تبلّج بالضياء مدى المدى
رمتُ الحدود فلم أجدهُ محدّدا
(وتركتُ مدحي للوصي تعمّدا
إذ كان نورا مستطيلا شاملا)
ناءٍ عن الإدراك جوهرُ قدسهـ
إذ كان متّحداً بأحمد جنسهـ
زيتُ يكاد يضيءُ قبل ممّسهـ
(وإذا استطال الشيء قام بنفسهـ
وصفات ضوء الشمس تذهب باطلا)

وقال في تخميس البيتین المنسوبين للإمام الحسين عليه السلام في حبه لإبنته سكينه و لزوجته
الرباب :

ودادي للرباب فشا و سارا
فكان لها ولابنتها شعارا

فلا بهما أرى وإِ عارا
(لعمرُك أنني لأحب دارا
تحل بها سَكينة والربابُ)
فلو لمحتهما شمس الجلالِ
عراها الخسف من فرط الجمال
ومذ بهما انطوى كل الكمال
(أحبهما وأبذل جل مالي
وليس لعاتبٍ عندي جوابُ)

وسببُ آخر من أسباب تعلق الناس بالشيخ كاظم وشغفهم بشعره وهو ولعه بنظم الطريف والطريف من
الأشعار و خاصة في عدد من المخترعات الحديثة التي بدأت تظهر في البلاد في أيامه , فلم يفته تسجيل
اندهاش المجتمع بها و تفاعله معها لأول وهلة بروحه المرحّة ولغته المنسابة , فقد كتب في الطائرة
و في المذياع وفي المروحة و في غيرها .

يقول في السيارة من قصيدة طويلة :

قد ركبنا بمركبٍ سيّارٍ
وجميلٍ يضيءُ كالأقمارِ
وحجابٍ عن كل بردٍ و حرٍ
وأمانٍ من كل ذئبٍ ضارٍ
وعلى وجهه سراجان لاحا
فأنارا كالكوكب السيّارِ

وقال في المروحة من أرجوزة طويلة أيضا :

وبَعْدُ إِنِّي نَاطِمٌ فِي المَروحةِ

فوائدَ بفضلها مفتوحة

لأنها جاءت إلينا فآخرة

وصوتها يشبه صوت الطائرة

رأيتها في السقف كالقنديلِ

لا حتّ لنا بوجهها الجميلِ

تميل لليمينِ و اليسارِ

كغصن بانٍ مال في الأشجارِ

وتُذهِبُ الحَرَّ عَنِ الجُـسُـومِ

فتنعش النفوسَ بالنسيمِ

وقال في المذيع :

سبحان من خلق الإنسان من علقٍ

وعلم الناس أسراراً و تبياناً
وأودع الجواهر الأعلى بفطنته
فاستخرجتهُ لأهل الأرض برهاناً
فصوت بغداد في الأحساء نسمعه
وصوت لندن في مصرٍ و لبنانا

ذلك هو الشيخ كاظم الصحاف رحمه الله ، الشاعر الذي ملأ الدنيا
واستأثر بكل الدهشة والإعجاب ، وتلك هي الأحساء التي كانت ولم ولن تزال محطة للعشق الإلهي ،
وأرجوحةً للمودة المحمدية ، و منهلاًً للولاء الحيدري ، يقف الزمان أمامها كل يوم وقفة إجلال و إكبار
لهذا الوفاء الذي لا تزيده العواصف الهوج إلا ثباتاً في الأرض و شموخاً في السماء .

هذا وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين